

رابطة العالم الإسلامي

الأمانة العامة

الإدارة العامة للمؤتمرات والمنظمات

بين الهوية الإسلامية وقيم العولمة

إعداد

الدكتور التيجاني بولعوالي

مدير الشؤون الأكاديمية

في الأكاديمية الإسلامية للتنمية والبحث - بلجيكا

مقدم إلى

مؤتمر مكة المكرمة السادس عشر

الشباب المسلم والإعلام الجديد

الذي تنظمه

رابطة العالم الإسلامي

تحت رعاية خادم الحرمين الشريفين

الملك سلمان بن عبد العزيز آل سعود

مكة المكرمة

٣ - ٤ / ذو الحجة / ١٤٣٦ هـ، الموافق ١٦ - ١٧ / سبتمبر / ٢٠١٥ م



رابطة العالم الإسلامي

مكة المكرمة – المملكة العربية السعودية

صندوق البريد (٥٣٧) أو (٥٣٨) مكة المكرمة (٢١٩٥٥)

هاتف: ٠٠٩٦٦١٢٥٦٠٠٩١٩ – الفاكس: ٥٦٠١٣١٩ – ٥٦٠١٢٦٧

برقياً: رابطة – مكة، تلكس: ٥٤٠٠٠٩ و٥٤٠٣٩٠

www.themwl.org

البريد الإلكتروني للإدارة العامة للمؤتمرات والمنظمات

conferences@themwl.org

واتس أب : (٠٠٩٦٦٥٠٣٣٩٦٣٢٠) : whatsApp

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

تعتبر ثنائية الهوية والعولمة؛ من القضايا المعقدة التي أفاض الباحثون شرقًا وغربـًا في معالجتها، لذلك يكثر، لا سيما في الفكر العربي والإسلامي المعاصر، اجترار رُؤَى بعينها تُعيد ما أنتجه السابقون، سواءٌ في الغرب أَم في العالم الإسلامي، وتكاد تناولاتُ المفكرين والمثقفين العرب والمسلمين؛ تُجمع على رفْض ظاهرة العولمة، تحت ذريعة الخوف من هيمنة الأنموذج الثقافي الغربي على حساب الهويات المحلية والجِهَوية، ومنها الهوية العربية الإسلامية، وهي بذلك تشكك بشكلٍ مطلقٍ في مسألة العولمة، دون تمييز موضوعي بين إيجابياتها وسلبياتها، محاسنها ومساوئها، وبين ما هو إنساني مشترك فيها، وما هو إيديولوجي ضَيِّق، وتلتقي في هذا الرفض: التياراتُ العلمانيةُ والإسلاميةُ واليساريةُ، حيث تقدّم العولمةَ بمثابة اختراع أمريكي قُحّ، تسعى من خلاله أمريكا وحلفاؤها لقولبة العالم حسب قيم الحداثة الأمريكية المناوئة لما هو ديني وتقليدي، في حين أنها نِتاج إنساني مشترك أسهمت كُلُّ الثقافات في بَلْوَرته.

إن العالم صار اليوم مفتوحـًا على جميع الأشكال الدينية والثقافية والإيديولوجية، إذ تكاد تتلاشى الحدودُ التقليديةُ أمام غزو الإعلام الفضائي والرقمي، ولا يمكن مواجهةُ هذا الزحف العولمي بالتقوقع والانطواء على الذات، وإنما بالانفتاح البَنَّاء والحضور المتنوع؛ قصد ترسيخ مقومات الهوية

الإسلامية لدى الأجيال الصاعدة، لا سيما في المجتمعات الغربية التي يعيش فيها ملايين المسلمين، حيث تتيح فلسفة التعددية وحوار الثقافات؛ إمكانيةَ التمسك بالدين الإسلامي مع مراعاة السياق الغربي الجديد.

لذا فإن الهدف من كتابة هذا البحث: التعمق في ثنائية الهوية والعولمة؛ لاستيعاب التوتر الذي يحكُم هذين المفهومين، وهما في الفكر العربي والإسلامي المعاصر على طرفي نقيض، ويقدَّمان على أنهما في تعارض أبدي وصراع لا يريد أن ينقضي، وهذا التشخيص يكاد يفتقر إلى المصداقية والواقعية، لأنه يؤسس نتائجه على مقدماتٍ غير صحيحة؛ فالإسلام لا يمكن أن نعتبره مقوماً من مقومات الهوية الإسلامية، بل إطارٌ ديني وأخلاقي شامل تنضبط له المقومات الأخرى، والعولمة لا يصح أن نختزلها في نطاق الأمركة؛ بل هي صناعة إنسانية أسهمت فيها كلُّ الأمم والشعوب والأديان والثقافات، وقيم العولمة لا يجب أن توضع كلها في سلة واحدة، فهناك من القيم ما لا يتعارض والهوية الإسلامية، وإنما يُثبته ويرسِّخه، والعولمة رغم أنها تهديد للدين الإسلامي، إلا أن الإسلام يتحداها، ويتحدى ببدائله الأخلاقية والاجتماعية والسياسية الناجعة؛ انحرافَ العولمة وشذوذَ الشِّق المؤدلج منها.

تسعى هذه الدراسة إلى استيعاب ماهية العلاقة التي تَحكم الهويةَ بالعولمة، وإلى الإجابة عن الأسئلة الإشكالية التالية:

- كيف يتحدد مفهوم الهوية في عالَم مُعولَم؟
- كيف تتشكل ملامح الهوية وتتركب عناصرها؟
- هل ثمة أزمة هوية أم أزمة فهم الهوية؟
- ما حقيقة الزحف العولمي؟

- إلى أي حد يمكن للعولمة أن تشكل خطراً على الهوية الإسلامية؟
- كيف يمكن ترويضُ «وحش العولمة»، سواءٌ عبْر آلية التكتل الإنساني؛ أم بواسطة منهج الإعراض القرآني؟
- ما طبيعة العلاقة الكائنة بين الهوية الإسلامية والعولمة في عالم مفتوحٍ لتَصارُع القيم أو تَسامُحها؟

أزمة هوية أم أزمة فهْم الهوية؟

عادة ما يكون تحديد مفهوم الهوية؛ بمثابة إجابة عن أسئلة من نوع: ما هي هويتك؟ مَن أنت؟ مَن تكون؟ ما هي حقيقتك؟ وهكذا دوالَيك. إلا أن ذلك لا يكفي للإحاطة اللازمة الشاملة بماهية الهوية التي يحملها شخصٌ أو مجتمع ما، لذا من الضروري إضافة سؤال آخر يتعلق بالكيف أو بالكيفية التي يتم بها التعبير عن مسألة الهوية، وهذا يعني الانتقالَ إلى مستوى أرقى من الأسئلة: كيف تُعبر عن هويتك؟ كيف تكون؟ كيف تتجلى حقيقتك؟ وهكذا يتم وصلُ الهوية بالفعل؛ فِعلِ الفرد في الواقع، ووظيفتِه في المجتمع، وإسهامِه في السياق الذي يندرج فيه.

ويجدر هنا التطرقُ إلى جانب الهوية في السياق الهولندي، حيث يَكثُر النقاشُ حول هوية الأصليين وهوية الأجانب، مما يجعل البعضَ يرى أن الهوية الهولندية في أزمة أو في خطر! وقد لاحَظ عالِم الاجتماع الهولندي «بول شخايفر»، في مقالته المشهورة (دراما التعددية)، أن مَيل الأجانب إلى الاختيارات الدينية أمر مقصود، لكن يبدو أن المرء لا يسأل نفسه عمَّا إذا كان

هذا الاعتزاز بالهوية يتلاءم وهدف التحرر الذي يسعى إليه[١].

وهذا يشير إلى أن التحرر يعني بالدرجة الأولى في هولندا وفي الغرب؛ يعني التخلصَ مما هو ديني؛ شكلاً ومحتوَى! وهذا ما تحاول تسويقَه التيارات الإيديولوجية والحركات الفكرية، لكن يترتب على ذلك ما هو أفظع وأضر للمجتمع، لأن المواطن المتدين عندما يتخلى عن هويته الدينية ويتحرر منها، يبحث عن هوية بديلة، وهذا غير ممكن؛ لأن الهوية ليست قطعة غيار تُستبدل أو تصلح عند أي ميكانيكي! أو سلعة يمكن اقتناؤها من أي محل تجاري! فما هو الحل الأنجع لفك رموز هذه الإشكالية الاجتماعية؟

ليس من الإنصاف أن نربط مشاكل مجموعةٍ ما؛ بالدين الذي تؤمن به أو بالثقافة التي تحملها، وإنما بالطريقة التي تستوعب بها المضامينَ والأحكام الدينية، ومن ثم كيف تنزلها على الواقع الذي تعيش فيه، وهذا ما حصل للكثير من المسلمين الموجودين في الغرب، الذين يُسقطون الديني على الواقعي بشكل غير سليم، إما انطلاقاً من بعض التأويلات المنحرفة، أو تأسيساً على بعضٍ الفُهوم المستقاة من عالم الإنترنت دون استشارة أهل العلم الشرعي.

بالمقابل؛ ينطوي المكوِّنُ الديني على العديد من الإمكانات الروحية والأخلاقية والتشريعية؛ التي من شأنها أن تعالج مختلف الانحرافات النفسية والاجتماعية، وهذا ما لم يتم استثمارُه بصيغةٍ علميةٍ واحترافية، وقد تنبَّهَت بعض الأوساط الرسمية والأكاديمية الغربية في الآوِنة الأخيرة؛ إلى أهمية ذلك في الرقِيِّ بهوية الإنسان المتدين، فيزرع الاطمئنانَ النفسي ويعزز التعايشَ الاجتماعي ويُجذّر الاستقرار الأسري.

(1) Scheffer, Paul, 'Het multiculturele drama', in: NRC Handelsblad, 29 januari 2000

إن رؤية الأميرة الهولندية «ماكسيما» لمفهوم الهوية الهولندية؛ تتضمن أكثر من إشارة، قد تعزز مكانة الأجانب والمسلمين في النسيج الاجتماعي الهولندي والغربي، ليس لأنها تنحدر من أصل أجنبي (الأرجنتين) فحسب؛ وإنما لأنها عاشت تجربةَ الاندماج في المجتمع الهولندي، ومِن ثم محاولة اكتساب الهوية الهولندية، ليس تجنيساً (بحمل الجنسية)، بل تكويناً (اكتساب شخصية هولندية حقيقية)، وتوصلت، إلى أنه لا وجود لهوية هولندية حقيقية! وذلك في خطاب ألقته يوم ٢٤ من سبتمبر ٢٠٠٧، بمناسبة عرض تقرير المجلس العلمي للسياسات الحكومية حول مسألة الهوية الهولندية،[١] حيث عَّبرت عن رؤيتها لموضوع «الهوية الهولندية» أو «حقيقة أن تكون هولندياً»، والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: لماذا اختارت الأميرة أن تتحدث عن هذه القضية الحساسة؟ وما هي الأسباب التي تقف وراء ذلك؟

إن الأميرة خصصت خطابها لتناول إشكاليةٍ شائكةٍ تَعتبر جوهرَ النقاش السياسي في هولندا، إذ لا تتعلق أهمية هذه الإشكالية بالموضوع الذي تتمحور حوله، وإنما بالكيفية التي يتم بها مقاربتُه وتحليلُه، فبعد رحلة من البحث استغرقت سبع سنوات، اكتشفت الأميرة أن «الهوية الهولندية لا وجودَ لها»! وهذه الرؤية تشكل وجهةَ نظر مهمة، يحملها شخص ينحدر من القصر الملكي، تقول: «أن تكون هولنديا: مسألةٌ أوسع من الهوية الهولندية»، ولم تتمكن الأميرةُ «ماكسيما» من العثور عليها بعدُ؛ لأن هولندا ليست مادةً ملموسة يمكن للإنسان أن يعثر عليها ويتملكها!

---

(1) Máxima: ‘Nederlandse identiteit nog niet ontdekt’, in: NRC Handelsblad, 25 september 2007

وما يسترعي الانتباه؛ أن الأميرة تحاول ترسيخَ رؤيتها بالاستناد إلى جملة من التجارب الشخصية التي عاشتها في هولندا، من بينها تجربتُها مع حماها الأمير «كلاوس» المنحدر من أصلٍ ألماني، الذي لم يتمكن طوال حياته من أن يستوعب مسألة «أن تكون هولندياً» أو الهوية الهولندية! وتجربة زيارتها للمغرب برفقة مجموعة من الشباب الهولندي من أصل مغربي، الذين يوفقون بين الهويتين الهولندية والمغربية، وقد أُعجبت بذلك كثيراً، لأنه من الروعة أن تنتمي إلى ثقافتين، وتتنقل بينهما دون مشقة، وتحكي تجربةَ تلميذة هولندية من أصل تركي، حين نجحت في امتحان نهاية السنة، علّقت مِحفظتَها إلى عامودٍ يحمل العَلَمين التركي والهولندي.

بَناءً على هذه التجارب الجميلة والمعبِّرة؛ تحاول الأميرة أن تركز على أهمية أن يكون المجتمع الهولندي متعدد الثقافات والألوان، لا مجتمعاً تقليدياً منغلقاً ببُعدٍ أحادي يصبح معه الأفقُ محدوداً ومنكمشاً لا يمنح فسحةً للأجانب والغرباء.

هذا الخطاب يشكل إجابة مفحِمة على التصور المتطرف المناهض لكل ما هو أجنبي، وهذا هو السبب الذي حفَّز الأميرة «ماكسيما» على تقديم هذه الرؤية الجديدة، وهذا قد يسهم في طرحٍ حل مثالي لإشكالية الهوية في هولندا، حيث تدعو إلى عدم التركيز على الاختلافات الشكلية بين الناس، وإنما الاهتمام بالأهداف المشتركة بين مختلف شرائح المجتمع، وبالإسهامات الفردية الجيدة، وهكذا نتمكن من التخلص من الأحكام المسبقة، ولا ينبغي الانشغال بالقواسم التي تفرِّق بيننا، فمن التنوع والاختلاف نستمد قوَّتَنا، لذا يجب تفادي السقوط في ثنائية الأسود- الأبيض، التي تجعلنا نقلِّص من إمكاناتنا وإمكانات الآخرين، في حين أن للناس أبعاداً كثيرة.

ومما لا شك فيه، أن وجهة نظر الأميرة «ماكسيما» حول حقيقة الهوية الهولندية؛ تحمل رؤيةً معقولة، من شأنها أن تقدم بديلاً ناجعـًا وقيِّمـًا لتعايشٍ مختلِفِ الثقافات والأديان داخل السياق الهولندي، وعليه تُسهم في الإجابة عن العديد من الأسئلة والمعضلات؛ ومرجع هذا إلى استيعابها العميق لمفهوم الهوية، الذي لا ينبغي التركيزُ فيه على أصل الفرد وأرومته داخل المجتمع؛ وإنما على وظيفته وإسهامه الإيجابي.

ومثل هذا التفسير يُحيل على الرؤية الإسلامية الشمولية التي تُقيّم الإنسانَ ليس من خلال أصله ومظهره؛ وإنما على أساس عمله: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧]، وعلى أساس تَقواه: «ألا لا فضلَ لعربيٍّ على عجميٍّ، ولا لعجميٍّ على عربيٍّ، ولا لأحمرَ على أسودَ، ولا لأَسودَ على أحمرَ إلا بالتقوى»[١]، والعلاقة بين العمل والتقوى متداخلة ومترابطة، إذ التقوى منزلة مرموقة لا تُنال إلا بالعمل الصالح، وكلما أخلص المؤمنُ في عمله وطلب به الصلاحَ لنفسه وأهله ومجتمعه وأُمته؛ تدرّج في مراتب الإيمان التي تَسلُك به إلى درجات الإحسان والتقوى.

لذا فالإطار الديني والأخلاقي (الإسلامي) ضروري لهوية المسلم، فهو الذي يوجهها حسب التعاليم الإلهية، فإذا كانت الفلسفات الغربية الحديثة (ليبرالية، وجودية، حداثة، ما بعد الحداثة، علمانية، أَنسنة، عَوْلمة) تقيس وظيفةَ الإنسان في أغلب الأحيان بمعاييرَ وضعيةٍ تركز على قِيمٍ إنسانية سامية؛

---

(١) البوصيري، أحمد بن أبي بكر، إتحاف الخيرة المَهَرة بزوائد المسانيد العشرة، برقم: ١٤٥٣٩.

كالمواطَنة والتعايش والتسامح والديمقراطية، إلا أنها تظَل رهينةَ الواقع المادي العلماني الذي تكوَّنَت وظهرَت فيه، في حين يُركز الإسلام على القيم نفسها، على أساس التوفيق بين ما هو دنيوي (عمل صالح) وما هو أخروي (تقوى).

هويتنا الإسلامية وزحف العولمة:

من المهم أن نؤكد على عنصرين أساسين: أولهما: أن الهوية مسألة متجذرة في الذات يكتسبها الإنسان منذ ولادته، من السياق الأسري والديني والثقافي والاجتماعي الذي يعيش فيه، وثانيهما: أن الهوية ليست فقط ما تعنيه حقيقة الإنسان، كأن يكون مسلماً أو عربياً أو أوروبياً أو هولندياً أو غيره، وإنما كيف يعني ذلك؛ أي من خلال ترجمة مكتسبات هويته ومكوناتها على أرض الواقع الذي ينخرط فيه.

ولعل القيمة المضافة لدى الإنسان المسلم؛ هي أن العقيدة الإسلامية تشكل الإطارَ الديني والأخلاقي التي يشهد كَينونةَ الهوية وصيرورتَها، ما يجعلها تنضبط لروح الإسلام وتوجيهاته، وتتلون بتعاليمه وشعائره، غير أنه كيف يمكن ترسيخُ هذا البعد الديني في هوية المسلمين، سواء في واقع (إسلامي) لا يطبق أحكام الشريعة الإسلامية؛ أم في واقع (غربي) غير إسلامي؟

فيما يتعلق بالمجتمعات الغربية متعددة الثقافات، فإن خصوصية كل هوية تظل حاضرةً ما لم تتعارض مع القوانين المنظمة والأعراف العامة، لأن ما ينتظره المجتمع هناك من كل إنسان أو شريحة؛ هو ما يقدمه من إسهام وخدمة للصالح العام، كما لمسنا في رؤية الأميرة «ماكسيما»، أما أغراض الهوية أو قِطعها كالتي يحملها الملك الإفريقي «ماني كونغو»، فتتعلق بما هو شخصي،

وهذا لا يعني أن الجانب الشخصي (بما فيه التعبدي) ينبغي أن يظل حبيس البيوت ودور العبادات، وينحجب عن الفضاءات العامة المشتركة كما يُسوّق ذلك السياسيون أو فئة «السادة»، وبتعبير «ناعوم تشومسكي»، التي: «تقوم بِدورٍ فعَّالٍ في إدارة الشؤون العامة، وهم الطبقة المتخصصة، الذين يحللون وينفذون ويصنعون القرارات ويديرون الأمور في النظم السياسية والاقتصادية والإيديولوجية»[١]؛ بل يعني أيضـاً أن الجانب الشخصي والتعبدي يتحتَّم أن ينال حظَّه من الحرية العامة التي يضمنها له القانون، مما يجعل الأمورَ تمضي في مجراها الطبيعي.

إن التحولات الجذرية التي يشهدها العالم؛ تجري بما لا تشتهيه سفينة التعايش الإنساني، لأنها تجنح أكثرَ إلى كِفة الإقصاء والقطبية والاستحواذ، بشتَّى المسميات والشعارات: (النظام العالمي الجديد، محاربة الإرهاب، حقوق الإنسان، والعولمة)، وقضية العولمة في علاقتها بالهوية، أو ثنائية العولمة والهوية؛ تكتسي طابعـاً خاصـاً ومتميزاً، يُحيل على نوعٍ من المفارقة بين توحيد رؤية العالم حول قيم ثقافية وسياسية واقتصادية موحدة، وبين بروز خصوصية كل هوية جِهوية أو إقليمية تنزع إلى الاستقلالية وإثبات الذات، فكيف يمكن استيعابُ مسألةِ الهوية في إطار امتدادات العولمة في مختلف أطراف الكرة الأرضية وجهاتها؟ وما طبيعة العلاقة القائمة بين هذين العنصرين؟ هل هي علاقة تضاد، أم تداخل، أم تضافر، أم احتواء، أم ماذا؟

إن تساؤلاتنا لا ينبغي أن تقتصر على سلبيات العولمة والتخويف من زحفها فحسب؛ بل يجب أن تتجاوز ذلك إلى التفكير العميق في كيفية استثمار الإمكانات الهائلة التي توفرها العولمة، سواءٌ أكانت اقتصادية أم علمية أم تقنية،

---

(١) تشومسكي، نعوم، السيطرة على الإعلام، ترجمة: أميمة عبد اللطيف، ص١١.

وتَجدر الإشارة إلى مقاربة الفيلسوف الهندي «أمارتيا صَن» لمسألة العولمة، حيث يخلخل الرؤيةَ السائدةَ التي مؤداها أن العولمة صناعة غربية، ليثبت أنها صناعة إنسانية أسهمت في صياغتها حضاراتٌ وثقافاتٌ متنوعةٌ عبر مختلف الحُقُب التاريخية، ويتساءل: هل العولمة لعنة غربية جديدة؟ وهذا السؤال لا يتعلق بأصل العولمة وصانعها فحسب، وإنما بنتائجها وآثارها أيضاً؛ وهو الجانب الذي يطرح المخاوف والوساوس لدى زمرة من المثقفين والمفكرين المسلمين، الذين يرون في العولمة تهديداً للدين والذات والهوية، وشراً للإنسان والمجتمع، وهم يتغافلون بذلك عن أن الآليات التواصلية والتكنولوجية التي يستعملونها في أنشطتهم الدينية والتربوية والعلمية؛ ما هي إلا ثمرة من ثمرات العولمة الصناعية والاقتصادية.

وهذا ما نَلمسه في شِقٍّ كبير من الفكر الإسلامي المعاصر، حيث يَنظر البعضُ إلى ظاهرة العولمة بمنظارٍ إسقاطيٍّ ضيق، لا يتبين منها إلا التهديدات والمَخاطر، حيث «العولمة هي اجتياح الشمال للجنوب.. اجتياح الحضارة الغربية ممثلةً في النموذج الأمريكي للحضارات الأخرى.. وهي التطبيق العملي لشعار «نهاية التاريخ»، الذي ادَّعَوا به أن النموذج الغربي الرأسمالي هو «القدَر الأبدي» للبشرية جمعاء، وهو تطبيق يستخدم في عملية الاجتياح؛ أسلوبَ «صراع الحضارات»، الذي يعني – في توازن القوى الراهن– أن تَصرع الحضارة ما عداها من الحضارات»[1]، وهذا خطاب تعميمي يُسوّق به الكثيرون العولمةَ على أنها «فُوبيا» جديدة، مخوفين الناسَ من غزوٍ ثقافي وأخلاقي غربي، في حين أن عالمنا أصبح مفتوحاً على مِصراعَيْه لشتى أصناف الغزو والتثاقف والصراع

---

(١) عمارة، محمد، ص١٤.

بين الأمم المعاصرة، لكن على أساسٍ متبادل، لا ينطلق فيه هذا الغزوُ من جهة واحدة، وإنما من مختلف الجهات، فلماذا يتم التركيز إذَنْ من قِبل البعض على الاجتياح الغربي، متجاهلين الغزوَ التجاريَّ الصينيَّ والاكتساحَ السينمائيَّ الهنديَّ والزحفَ الصَّفَويَّ الشيعيَّ؟.

ثم إن نظريات نهاية التاريخ التي طرحها العالِم السياسي الأمريكي «فرانسيس فوكوياما» منذ صيف ١٩٨٩[١]، وصدام الحضارات التي دعا إليها الأمريكي «صموئيل هنتنجتون» سنة ١٩٩٣[٢]، وغيرِهما، تَمَّ انتقادُها بشدة من قِبل مفكرين غربيين كبارٍ: «هانس كونغ، كارن أرمسترونغ، إنجمار كارلسون» وآخرين، فهي لا تشكل خطراً على العالم الإسلامي فحسب؛ وإنما على الغرب الذي أنتجها كذلك!

إن إجابة الفيلسوف «أماتيا صن» عمَّا إذا كانت العولمةُ لعنةً غربية جديدة تحمل رؤيةً لا تتعارض فقط مع بعض الدوائر السياسية والفكرية الغربية التي

(١) تجدر الإشارة إلى أن نظرية نهاية التاريخ طرحها «فرانسيس فوكوياما» لأول مرة صيف ١٩٨٩، بمقالٍ نشره في مجلة The National Interest، وهذا المقال شكَّل أصلَ كتابه المشهور حول نهاية التاريخ والإنسان الأخير، ينظر: فوكوياما، فرانسيس، نهاية التاريخ والإنسان الأخير، ص٢٣.

(٢) يعتبر المقال الذي نشره «صموئيل هنتنجتون» في مجلة Foreign Affairs سنة ١٩٩٣؛ أساس مشروعه الفكري حول صراع الحضارات، وقد جاء بمثابة رد فعل على أفكار تلميذه فوكوياما الذي اعتبر أن نهاية مرحلة الحرب الباردة تعني أن النظام الديمقراطي الليبرالي هو الشكل الذي سوف يهيمن على طبيعة الأنظمة في العالم، في حين يرى أستاذُه «هنتنجتون» أنه بعد الحرب الباردة؛ ستكون الاختلافات الثقافيةُ؛ العاملَ الجوهري في نُشوء صراعات بين البشر. يُنظر: هنتنجتون، صموئيل، صدام الحضارات إعادة صنع النظام العالمي، ترجمة: طلعت الشايب.

تـدعي أن العولمـة صـناعة غربيـة، ولكـن مـع الكثيـر مـن المثقفيـن المسـلمين والعرب كذلك؛ الذين سلّموا بأن العولمة مُنتَج غربي أو أمريكي موجّه لـدول الهامش، فهو يؤكـد أن العولمـة «لا هـي جديـدة، ولا هـي غربيـة بالضـرورة، ولا هي لعنة»، والحقّ أن العولمـة أسـهمت عـبر آلاف السـنين، في تَقـدُّم العـالم، مـن خلال الترحال، والتجارة، والهجرة، وانتشار المؤثرات الثقافيـة، ونشْـر المعرفـة والفهْم (بما يشمل العلـوم والتكنولوجيـا)، هـذه العلاقـات العالميـة المتداخلـة؛ كانت غالبـاً مثمرةً للغاية في تقدم مختلف بلدان العالم، وأحيانـاً كانـت الوسـاطة النشطة للعولمة؛ تقـع في أمـاكن بعيـدة جـداً عـن الغـرب[1]، وعلـى المِنـوال ذاتـه يذهب المفكـر «أمـين معلـوف» إلـى «أن «ريـاح» العولمـة قـد تقودنـا فعليـاً إلـى الأسوأ، وقد تقودنا إلـى الأفضـل أيضـاً»[2]، وهـذا إن دل علـى شـيء، فإنـه يـدل علـى أنـه لا ينبغـي أن تقـف توجسـاتُنا مـن الزحـف العـولمي سـداً منيعـاً أمـام الإمكانات المعرفية والتواصلية والتكنولوجية التي يضعها اليومَ الإعلامُ الجديدُ بين أيدينا، فهل استفدنا إذن من ثمارها واستثمرنا نتائجَها؟ وهل فكرنا في ذلك؟ ولعل بعض الدول الآسيوية، كدول جنوب شرق آسيا والصـين والهنـد وتركيـا؛ سلكت هذا النهج، وها نحن اليومَ نرى بأعيننا ثمارَ مـا غرسـته، حتـى إن الصـين التي تعيش في صراع تـاريخي وإيـديولوجي مـزمن ومحتـدم مـع الغـرب، عرفـت كيف تستثمر مكتسبات العولمة بشكل يتماشى مع فلسفتها الاشـتراكية الماديـة، وهكذا تمكنت من إخضاع تيار العولمة لصالحها، فصـارت نعمـةً لهـا، في حـين أنها نِقمة على العديد من الدول والشعوب الثالثية!

---

(١) صن، أمارتيا، ص١٣٠.

(٢) معلوف، أمين، ص٩٠.

وأهم عقبة تَحول دون تعامل المسلمين بشكل عقلاني مع العولمة: الخوف من الذوبان، وازدواجية التعامل مع الغرب، والتقوقع على الذات، ونحو ذلك من الأسباب التي تجعلنا وجهاً لوجه مع العولمة، أو خارج أسوار العولمة، والواقع أننا في قلب العولمة! نملك قابلية «التعولم» أكثر من صُناع العولمة أنفسهم، لذا ينبغي «أن نتلمس الجوانبَ الإيجابيةَ للعولمة، ونعمل لتوظيف إيجابياتها فيما ينفعنا في حياتنا العامة»، «وبذلك نَسلُكُ طريقَنا للاستفادة منها بما يدفعنا إلى الإسهام في الحضارة الإنسانية الجديدة، من موقعنا الثقافي المتميز وخلفيتنا التاريخية وهويتنا الحضارية المتفردة»(١).

إيديولوجيا العولمة وفلسفة التعددية

إن الانفتاح على إيجابيات العولمة؛ ينتج لدينا وعياً ينبني على التعامل العقلاني والنقدي مع العولمة وغيرها من القضايا المعاصرة، الذي يميط اللثام عن سلبيات العولمة، أو ما يسميه «طه عبد الرحمن»: «الآفات الخُلُقية للعولمة»، التي لا يمكن درؤها إلا بالعودة إلى الدين، يقول في هذا الصدد: «وحينئذٍ، ليس عجباً أن تقع الهرولة إلى الدين؛ حيث كان يُظن أن الممارسة التعقيلية للعولمة قد استأصلته كما في الدول الغنية؛ فقد تيقن المهرولون من أنه لا عاصمَ اليوم من طوفان العولمة إلا سفينة الوحي الإلهي»(٢)، والدين هنا بكونه أساس هوية الإنسان المسلم وحقيقته، أو الإطار العقدي والأخلاقي الذي يمنح هويَتنا شكلَها الحقيقي، وهذا يعني أن العلاقة وثيقة بين الدين

---

(١) التويجري، عبد العزيز بن عثمان، تأملات في قضايا معاصرة، ص١٧.

(٢) عبد الرحمن، طه، روح الحداثة؛ المدخل إلى تأسيس الحداثة الإسلامية، ص٨٦.

والهوية في الإسلام، مما يخلق نوعـًا من الإحجام عن العولمة، لاسيما في بُعدها الثقافي الذي يهدف إلى تكتيل العالم بِرُمَّته على قيمٍ ثقافية مشتركة وموحَّدة، قد تهدد خصوصيةَ كل دين أو ثقافة.

عليه فالرفض المعلن أو الخفي للعولمة الثقافية؛ مترتب إما عن أن الغرب (المتأمرك) يخطط للهيمنة الثقافية على العالم، ولن يتأتى له ذلك إلا عن طريق العولمة الثقافية التي ما هي إلا «غرْبنة» أو «أمْركة» الكرة الأرضية! وهذا ما يتخوف منه الكثير من المسلمين ويرفضونه رفضـًا باتـًا؛ وإما عن غموضٍ في الرؤية الثقافية التي يقدمها الغرب للعالم، بغرض التكتل حول القيم الإنسانية المشتركة، التي من شأنها أن تحقق التقاربَ والتعايشَ والتضامنَ بين الشعوب والأمم، غير أنه لم تؤخذ الخصوصيات الدينية والثقافية المحلية والإقليمية بعين الاعتبار، وقد أصبحت اليوم محاصَرةً في عُقْر دارها بالأنموذج الثقافي الغربي (الأمريكي)، وفي الحالين؛ رغبة توحيد العالم والتباس الرؤية، لم يتم الاكتراث الحقيقي أو اللازم بالهوية التي بها يصير الإنسان مختلفـًا، ليس اختلاف تَضادٍّ وتَنافُر، وإنما اختلاف تَميُّزٍ وتنوُّع، لذلك فإن العلاقة بين الهوية من جهة، والعولمة في بُعدها الإيدولوجي الضيق من جهة ثانية؛ لا تأخذ طابعَ تَضافرٍ أو تَداخلٍ أو تَصارعٍ أو احتواء أو غير ذلك، وإنما طابع النكران أو عدم اعتراف النظام «العولمي» الكوني المؤدلج بالخصوصية «الهوياتية» المحلية، مما يسبب فجوةً عميقةً بين الغرب/ الشمال الآمِر والناهي، وبين الشرق / الجنوب الخاضع تارة، والمتحدي تارة أخرى! لذا لا يمكن صرفُ النظر عن الطابع الإيديولوجي للعولمة، وهو الطابع نفسه الذي كان يحضر لدى الرأسمالية التقليدية والاشتراكية، لكن بصيغةٍ أكثر حداثة أو ما بعد حداثية.

وقد اعتبر المفكر «محمد عابد الجابري» العولمة إيديولوجيا، تَنزِع إلى الهيمنة الأمريكية أو الغربية على العالم، وهي تكسر بذلك مفاهيمَ الدولة والوطن والأمة، واضعةً حدوداً أخرى غير مرئية، ترسمها شبكات الهيمنة العالمية على الاقتصاد والأذواق والثقافة[١].

وهكذا تصبح العولمة بمثابة جهاز يوظفه القوِيُّ المهيمن لقَولبة العالم حسب النمط الذي يريده، دون تمييزٍ بين القضايا المادية والأخلاقية، بما في ذلك مسألة الهوية التي أضحت عُرضةً للتنميط والاستنساخ الإيديولوجي، حتى يصير العالم بهوية واحدة موحدة تتخطى ما هو ديني وثقافي وسياقي، وهذا ما يتعارض والفلسفة التعددية التي يدعو إليها الفكر الغربي المعاصر، وهي تشكل إطاراً لتعايشِ مختلفِ العقائد والثقافات في مجتمعٍ توحِّدُه قيمٌ إنسانية مشتركة، كالحوار والاحترام والتسامح والعدالة الاجتماعية والمساواة، فكيف يتأتى حفظُ سُنة التنوع في الوجود والفكر والثقافة إذا كانت العولمة ترمي إلى استنباتٍ إيديولوجي حِرفيٍّ للقيم الغربية والأمريكية في كل بقعة من الكرة الأرضية؟ لكن يغيب في تحليلات بعض الباحثين والمفكرين المسلمين والعرب: ذلك التمييز الموضوعي بين توجهات الفكر الغربي المعاصر ومواقفه من ظاهرة العولمة، لا سيما وأنه يتم اعتمادُ مقاربةٍ سطحية تكتفي ببعض التفسيرات الإعلامية والسياسية المؤدلجة، وترْك الاشتغال على النظريات الفكرية الأكاديمية المحايدة، وهذا ما أنتج تِرسانةً من الأفكار التنميطية والآراء التعميمية، التي تختزل الغربَ كله في العولمة، وتختزل العولمةَ كلها في الغزو الثقافي، غير أن الغرب أوسع من ذلك، فهو يتضمن شرائحَ متنوعةً تتباين في نظرتها إلى الإسلام،

(١) الجابري، محمد عابد، قضايا الفكر المعاصر، ينظر: ص١٣٣-١٥٤.

منها ما هو عنصري يعادي المسلمين ويسيء إليهم، ومنها ما هو متسامح يعترف بالدور الحضاري للمسلمين دِينًا وثقافةً وتراثًا، ومنها ما يدين بدين الإسلام ويسعى حثيثًا إلى نشره وتقويته بالخُلق الحسن والدعوة الطيبة والإسهام البَنَّاء، بل والعولمة أكبر من الغزو الثقافي، فهي تشمل ما هو تكنولوجي يُيسّر حياةَ الإنسان، وما هو تواصلي يمكِّن الناسَ من التواصل والتنقل بسرعةٍ وفعالية، وما هو منهجي يساعد في تحصيل العلوم والبحث العلمي وتبادل الخبرات.

ثم إن العولمة ظاهرة إنسانية عامة أسهمت مختلف الشعوب والثقافات في صياغتها عبْر التاريخ، لذا فإن مماثلة العولمة بالأمركة؛ مجرد وجهة نظر واحدة لتيارٍ سياسي وإعلامي يدافع لأجل القيم الأمريكية، تعارضها الآراء الرافضة لهذا الطرح الإيديولوجي، في العالم العربي والإسلامي، ومن داخل الغرب نفسه؛ حيث تنشط «حركات احتجاج الناشطين ضد العولمة، يريد المحتجون، الذين حركتهم فرضية أن العلاقات العولمية معادية ومناوئة في الأساس بدلاً عن أن تساعد على الدعم المتبادل، يريد المحتجون أن ينقذوا المستضعفين في العالم مما يرون أنه عواقب العولمة، والتعبير المدوِّي عن انتقادات العولمة لم يكن عاصفًا فقط في التظاهرات التي لا تزال تجري في كل مكان حول العالم، في سياتل، واشنطن، كويبك، مدريد، لندن، مِلْبورن، جَنَوا، وأدِنْبرة، وغيرها، هذه الهموم تَحظى بانتباهِ عددٍ أكبر ممن قد لا يريدون أن يَلحقوا بالتظاهرات المتَّقدة، ولكنهم يرون أيضًا أن التفاوتات في الحظوظ شديدةِ التبايُن؛ ظُلمٌ بيِّنٌ يستحق الشجب، ويرى البعض في هذه المظالم فشلاً كاملاً لأية قوة أخلاقية يمكن للهوية العولمية أن تستحثها»[1].

---

(١) صن، أمارتيا، ص١٢٤.

والفرنسيون أشد تشاؤماً من الزحف العولمي وظاهرة الأمركة، لكونها تهدد الوجود الفرانكفوني في العالم، الذي ما انفكَّ يتراجع أمام امتداد اللغة الإنجليزية وانتشار الأشكال الثقافية الأمريكية، والمفكر «أمين معلوف» في كتابه الهويات القاتلة؛ أهم من يقربنا من توجسات المجتمع الفرنسي ومخاوفه؛ حيث يقول: «ألاحظ منذ عدة سنوات في فرنسا عند بعض أقرب أصدقائي؛ مَيلاً إلى التحدث عن العولمة وكأنها مصيبة، وبات ذِكرُ القرية الكوكبية يثير إعجابَهم بشكل أقل، وباتوا أقلَّ شغفاً بالإنترنت وبآخر التطورات في مجال الاتصالات، لأن العولمة تبدو اليومَ في نظرهم مرادفاً للأمركة، وهم يتساءلون عن المكانة التي ستحتلها فرنسا غداً في هذا العالم الذي يتجانس بشكل متسارعٍ، وماذا سيحل بِلُغتها وثقافتها وخصوصيتها وإشعاعها وطريقة عَيشها»[(١)].

كما تَحضر داخل الأوساط الأكاديمية الغربية؛ تفسيراتٌ فكريةٌ موضوعية تُعارض اختزالَ تنوُّع الإنسان الديني والثقافي والقيمي في أنموذجٍ عولمي موحَّد «يؤمرك» العالمَ كلَّه، بما فيه الغرب نفسُه، وكبديلٍ لتلك القَولبةِ العولمية؛ تُطرح فلسفةُ التعددية التي تمنح الفسحةَ لمختلف عقائدٍ وثقافات ولغات المجتمع، حيث يعيش المواطنون في إطارٍ من الحوار والتسامح والاحترام المتبادل، دون تهميشِ دِينٍ معين لصالح دينٍ آخَر مهيمِن، ودون الحطِّ من الثقافات الأجنبية الوافدة لصالح الثقافة الأصلية المسيطرة، وهذا ما يتوافق وتصور الإسلام للوجود والحياة والمعاملة.

---

(١) معلوف، أمين، ص٦٦، ٦٧.

الهوية الإسلامية وقيم العولمة

عقب تحديدنا لمصطلح الهوية آنفًا، استناداً إلى بعض التعريفات المُعجمية والتفسيرات الفكرية، خلَصْنا إلى أن الهوية تعني حقيقةَ الإنسان التي يحملها، حيث تتضافر جملةٌ من المكونات لتشكيل ملامحها المتفردة التي تميزه عن باقي أفراد المجتمع، وهذا ما قد يَسري أيضًا على مفهوم الهوية الإسلامية التي تشكل العقيدةُ الإسلاميةُ كُنْهَها الثابتَ الذي لا يتزعزع رغم تغير أحوال العباد والبلاد، بل وإن باقي العناصر التي تتألف منها هويةُ الشخص المسلم؛ تتلون بروح الإسلام وتوجيهاته وأخلاقه، لا سيما عندما يتمكن دينُ التوحيد منه، فينقاد عقلاً وقلبًا ولسانًا وتعبُّداً بتعاليم الإسلام ومبادئه، وهكذا يصبح الإسلامُ بمثابة الإطار الديني والأخلاقي الذي تتشكل فيه هويةُ المسلم بمختلف مكوناتها اللُّغوية والثقافية والجغرافية والعائلية، لذلك لا ينبغي اعتبارُ الإسلام عنصراً عاديًا في هوية الإنسان المسلم، وإنما إطار شمولي مطلَق تنضبط إليه عناصر الهوية، فتنطبع بروحه، وتتجه على المنوال التوحيدي والرباني الذي يرسمه القرآنُ الكريم وتُجلِّيه السُّنةُ النبوية الشريفة.

وهذا هو الجانب الذي يميز الهويةَ الإسلاميةَ عن غيرها، فهي «تستوعب حياةَ المسلم كلَّها، وكلَّ مظاهر شخصيته»، ثم «إنها تجمع وتوحِّد تحت لوائها؛ جميعَ المنتسبين إليها، وتربِط بينهم برباط وثيق، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ﴾ [الحجرات: ١٠]»[١]، فضلاً عن أن الإسلام يُعتبر «هويةً فطرية» لجميع البشر الذين يولدون على فطرة الإسلام، غير أن السياق العائلي والاجتماعي

---

(١) العاني، خليل نوري مسيهر، الهوية الإسلامية في زمن العولمة الثقافية، ديوان الوقف السني بغداد، ص٤٥ . ٤٦

يـؤدي دَوراً جوهريــاً في تقريـر مصير هـذه الهويـة الفطريـة، فـإنْ كـان السـياق إسلامياً؛ تجذَّرت الهويةُ الإسـلاميةُ في الشـخص منذ ولادته، وإن كـان السياق مغـايراً، فعـادةً مـا يـؤدي ذلـك إلى التلاشـي الكلي لتلـك الفطـرة أو الانكمـاش المؤقت، حيث يمكن للشـخص العـودةُ إلى هويتـه/ فطرتـه الأصلية بمجـرد مـا تتوفر الظروف الدينية والتربوية والاجتماعية الملائمة لذلك، فيعتنـق مـن جديـدِ الإسلام بكَونه ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ﴾ [الروم: ٣٠].

كما أن معيار الهوية الإسلامية لا يتحدد في أصل الشخص المسـلم وفصـله، بقدر ما يتعلق بوظيفته في المجتمع والحياة، وبما يقدمه لأسرته وواقعه وأمته من خِـدمات جليلـة وأعمـال صـالحة، توفـق بـين إعمـار الأرض والاسـتعداد ليـوم الرحيل، وهكـذا يَرقـى الإنسـانُ في عملـه وإيمانـه إلى درجـة التقـوى التي تعتبر الفيصلَ في تقييم حقيقة الإنسـان المسـلم في الـدارين: الأولى والأخـرى، وعليـه يبدو أن الهوية الإسلامية تنطبع بجملة من الملامـح الجوهريـة تجعلهـا تختلـف جذريـاً عن غيرها، كالإطار الديني والأخلاقي الإسـلامي، واسـتيعاب شخصـية الإنسان وحياته، والتوحيد بين أفراد الأمة الإسلامية، والفطرية، ومعيار التقوى، وعندما نوازن هذه الملامحَ بما تحويه من حقـائق وقـيم وبـدائل؛ بـالقيم الثقافيـة والأخلاقية التي يدعو إليها الفكر العولمي؛ نـدرك أن العولمـة الثقافيـة لا يمكـن أن تشكل أي تهديد للهوية الإسلامية، بل العكس صـحيح، فالإسـلام هـو الـذي يشكل تحديـاً كبيراً لها، بحقائقه الدامغة، ودعوتـه الواضـحة، وبدائلـه الناجعـة، ونتيجةً لذلك، تتحدث العديد مـن التقـارير والإحصـائيات عـن إسـلام عشرات الآلاف مـن الغـربيين سـنويـاً؛ ألا يعنـي هـذا نوعــاً مـن العولمـة المضـادة التـي يسمونها: عولمة الإسلام، التي لا تقتصر فقط حسب المفكـر الفرنسـي «أوليفيـه روا» «على التمسـك بالهويـة (...) أو تحليـلٍ يهـدِف إلى التوفيـق بـين التمسـك

بالجذور وبين العصرية والاستقلالية الفردية (...)؛ فالأسلمة جزءٌ لا يتجزأ من عملية المثاقفة، أو التخلي عن حضارات بُلدان المَنشأ للتأقلم مع الثقافة الغربية»[١]، هذا التخلي الذي يدَّعيه «أوليفيه روا» هنا؛ يظل نِسبيًا، لأنه يتعلق بالجانب الشكلي، حيث الإسلام يتلون بالثقافة التي ينتمي إليها المسلم؛ في الشرق أو في الغرب، في الشمال أو في الجنوب، أما جوهر الإسلام الذي تشكله عقيدة التوحيد بمختلف أركانها وأحكام العبادات والمعاملات المنصوص عليها في الكتاب والسنة؛ فيظل واحداً وموحَّداً عبر الزمان والمكان، وهذا ما لم يتنبه إليه الكثير من الباحثين والمفكرين الغربيين.

بالإضافة إلى ملامح الهوية الإسلامية، يمكن الحديث أيضًا عن عناصر أو مقومات هذه الهوية، التي تعتبر مَحَطَّ إجماعِ أغلب العلماء والمفكرين والباحثين المسلمين، كالعقيدة الإسلامية، والتاريخ المشترك، واللغة العربية، والتراث، والثقافة، والأخلاق الإسلامية، والمصير المشترك، وغيرها، فإذا كانت بعض هذه العناصر ثابتةً في الذات المسلمة- كالعقيدة والتاريخ والمصير- فإن هناك من المقومات ما يتباين من منطقة إلى أخرى، كاللغة والثقافة والعادات والطبيعة الجغرافية وغيرها، فالهوية، حسب «أمين معلوف»: «تتشكل من انتماءات متعددة، ولكن من الضروري أن نشدد بالقدْر ذاته على حقيقة أنها واحدة، وأننا نعيشها بوصفها كُلاً متكاملاً، ليست هوية الشخص تراكمًا لانتماءاتٍ تلقائية، ليست «رقعًا»، إنها رسْمٌ على بشرة مشدودة، ويكفي المساسُ بانتماءٍ واحدٍ لكي ينتفض الشخصُ بكليته»[٢]، يُذكِّرنا هذا الكلام

---

(١) روا، أوليفيه، عولمة الإسلام، ترجمة: لارا معلوف، ص١٠.

(٢) معلوف، أمين، ص٢٧.

بالحديث النبوي المشهور: «**مَثلُ المؤمنين في توادِّهم وتراحُمِهم وتعاطُفِهم، مَثلُ الجسدِ، إذا اشتكَى منه عضوٌ، تداعَى له سائرُ الجسدِ بالسَّهرِ والحُمَّى**»[١].

والأمر يتعلق هنا بمقومات الهوية الإسلامية الثابتة، كالعقيدة الإسلامية الصحيحة، والتاريخ المشترك، والتراث، والمصير الواحد، أما غيرها من المكونات؛ فتخضع للعوامل الجغرافية والثقافية واللغوية التي تخص كل منطقة من مناطق العالم الإسلامي.

---

(١) صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، برقم: ٣٠٨٨.

بين الهوية اللغوية والمقوم الثقافي

هناك من المقومات ما يثير أحياناً نوعاً من الجدل الفكري والإعلامي، كاللغة العربية مثلاً، التي تعتبرها طائفةٌ لغةَ القرآن والإسلام، ارتكازاً على نصوص القرآن والسنة، غير أن هذا الفهم عند آخرين؛ يتعارض مع سُنة الاختلاف في الخَلق والألسن والثقافات، التي نَص عليها القرآن الكريم بقوله: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ ﴾ [الروم: ٢٢].

ومع ذلك، فإن المسلمين على اختلاف لغاتهم وثقافاتهم؛ لديهم قابلية الانفتاح على اللغة العربية وتعلُّمها، التي بها يتأتى الفهمُ السليمُ لحقيقة الإسلام كما يقرها القرآن الكريم وتشرحها السنة النبوية، وهذا لا يعني إلغاءَ اللغات واللهجات غير العربية، التي انفتحت تاريخياً على اللغة العربية فاقترضت منها المصطلحات الكثيرة، واستعملت الأبجديةَ والخطَّ العربيين (الفارسية، الأوردية، العثمانية)، بل وتبنت العربية على نطاق واسع، في التعليم والعلوم والإدارة والمراسلات، واليوم إذا كانت تشكل العولمةُ اللغويةُ (الإنجليزية) خطراً على بعض اللغات الأوروبية - كالفرنسية مثلاً- فبالمقابل فتحَت آفاقاً واسعةً للإنسان المسلم، الذي أصبح ينتقل بين مختلف اللغات بشكلٍ سلِس، وهكذا تزايد الإقبالُ المطَّرد على تعلم اللغة العربية، وفي الوقت نفسه استفاد الإسلامُ من اللغات الأخرى التي يتحدثها ملايينُ المسلمين، لتصبح آليةً عولميةً استراتيجيةً في نشر الإسلام والدعوة إليه.

إن العولمة الثقافية بقدر ما تضع جملةً من التحديات في طريق اللغة العربية، فإنها تمنحها الكثيرَ من الإمكانات الجديدة لأن تنهض من رقْدَتها، غير أن الخلل ليس في اللغة العربية، ولا في العولمة الثقافية، وإنما في الإنسان العربي نفسه الذي تَعُوزُه قابليةُ استثمارِ الفرص الهائلة التي تتيحها هذه العولمة! وليس

أدَلَّ على ذلك؛ من المفارقة العجيبة التي مؤداها أن اللغة العربية أصبحت اليومَ اللغةَ العالميةَ الخامسةَ من حيث المتحدثون بها، بحسب آخر إحصائيات المرصد اللغوي Ethnologue المتخصص في اللغات العالمية،[1] غير أن المنطقة العربية بمختلف دُوَلِها ومؤسساتها وجامعاتها ومعاهدها؛ فشِلَتْ إلى اليوم في إرساء استراتيجية لُغوية تؤهل لغة الضاد، وتجعلها تواكب التحولات التكنولوجية والأكاديمية والتواصلية واللسانية التي يشهدها العالم، ثم إن المكون الثقافي بشتى عاداته وتقاليده وأخلاقه، لم يشكل يوماً ما؛ تحدياً في طريق الإسلام، لأن الإسلام لم يأت لإلغاء عادات الآخرين وتهميش تقاليدهم والحط من أخلاقهم، وإنما جاء ليصحح ما انحرف منها عن الطبيعة، ويعزز الطيبَ منها وِفْقَ نظرة الشرع، وهذا ينطبق على بعض القيم الجديدة التي جاءت بها العولمة، فالمسلم حُرٌّ في التعامل معها حسب توجيهات دينه الواضحة، فإن كانت تتوافق ومقاصد الدين الإسلامي؛ وجَب احترامُها والأخذ بها، وإن كانت تتعارض والرؤية العقدية والأخلاقية الإسلامية، وجَبَ الإعراضُ والبُعْدُ عنها.

إن فوائد العولمة أكثر من مصائبها، لذا ينبغي أن نهتم بها، ونَدَعَ الخوفَ من الغزو العولمي الثقافي والأخلاقي، بدعوى تحصين الذات أو الهوية، في حين أننا في قلب العولمة، بل نحن أكثر مَن يقطف ثمارَها الإعلاميةَ والتكنولوجية والاقتصادية، ولا غنى عن الانفتاح والتعامل مع العولمة باعتبارها نِتاج الإنسانية جمعاء لا الغرب وحده، وهكذا نتمكن من فهم طبيعتها واستيعاب أهدافها الخفية والمعلنة، أما إذا تقوقعنا على ذواتنا، فذلك لن يجنبنا اكتساحَها في العمل والمدرسة والشارع والشاشة.

(1) Ethnologue Languages of the World, ‘Summary by language size’, in: www.ethnologue.com

ترويض «وحش العولمة»

إن مواجهة المد العولمي المؤدلج؛ لا تَتِمُّ إلا بترويض «وحش العولمة»، لأننا لو أغلقنا الأبوابَ في وجهه، فسيقضي على الأخضر واليابس، ويعتمد تنفيذُ هذا الترويض؛ آليتين جوهريتين:

آلية التكتل الكوني: فعالمنا اليوم في أمسِّ الحاجة لأن يتكتل الناسُ من مختلف العقائد والمشارب والثقافات ضد التحديات العظمى التي تهدد الإنسانيةَ جمعاء، كالكوارث الطبيعية والتقلبات المُناخية والأمراض الفتَّاكة والإرهاب، مما قد يؤهلنا لحماية الهوية الإنسانية الجامعة والقيم الكونية المشتركة، التي تدعو إليها مختلف الأديان والفلسفات، والإنسانية تتخبط اليومَ في أزمة هوية عارمة، فهي تفتقر إلى المخزون الروحي والأخلاقي الذي ينطوي عليه الدينُ الإسلامي، ولعل الانفتاح المتوازن على غير المسلمين؛ من شأنه أن يكشف عن حقيقة الإسلام التي تحجبها الصحافةُ الصفراء المؤدلجة، وأحزابُ اليمين المتطرفِ وغيرُها من الحركات المُسيَّسة المعادية للمسلمين والأجانب، لذا فإن تكتل المسلمين الكوني مع شتى التيارات والأفكار المناهضة للسياسات الغربية المتغطرسة والرافضة للاكتساح العولمي الشرس؛ أمرٌ لا مَناص منه، لبناء جبهة إنسانية مشتركة تواجه مختلف الإيدولوجيات الهدامة والمتطرفة، سواء الصادرة عن العولمة (الأمريكية)،أو المضادة الصادرة (كردِّ فِعل) عن بعض حركات الإسلام السياسي الراديكالية، وهذا التكتل لا يُفهم على أنه انقيادٌ للمسلمين لأفكار بعض الفلسفات الغربية المادية - كما يحصل لدى بعض المتغربين المنبهرين بالحضارة الغربية - بل حلَقة جوهرية في مبدأ العالمية الذي تتأسس عليه رسالةُ الإسلام بكونها موجهةً للإنسانية جمعاء، ولا يتحقق هذا المبدأ إلا عبر الانفتاح والتكتل والتعاون، لإرساء جملةٍ من القِيم الكونية

المشتركة، التي تدعو إلى إعمار الأرض وحماية البيئة وإقرار السِّلْم واحترام المعتقَد والهوية واللغة والثقافة.

آلية الإعراض القرآني: بمجرد ما تتعارض الأفكار والرؤى مع مبادئ العقيدة الإسلامية؛ فلا شأن لنا إذَن بها، بل يتوجب توعيةُ الشباب المسلم بخطورتها وتداعياتها السلبية، فلا ننشغل الدهرَ كله بالتضخيم منها والدندنة حولها، فالخطاب القرآني جلِيٌّ في هذا الصدد، حيث يتضمن آليةً ناجعةً في التعامل مع من يسيء إلى الإسلام، وهي «آلية الإعراض» التي يتخذ تطبيقُها أبعاداً متعددة، وتتداخل أحيانـاً مع آلياتٍ أخرى، كالتوكل على الله: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٨١]، والموعظة: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ [النساء: ٦٣]، والصدْع: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤]، والصبر: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [المزمل: ١٠]، وعدم الخوض: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾ [الأنعام: ٦٨]، وعدم السبِّ: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨]، وغير ذلك من الأبعاد والآليات، وهذا ما ينطبق على التعامل مع قيم العولمة «الفاسدة» التي تتعارض والإطار الأخلاقي الإسلامي، إذ نختار الآليةَ القرآنيةَ الأنسبَ للتعامل معها، قد يكون ذلك عبر الموعظة الحسنة التي تكشف عن أخطار قيمة معينة وعواقبها الوخيمة، أو عبر الصبر على أذى بعض المغرضين بالإسلام، كما صنع ﷺ في بداية دعوته، أو عبر عدم الخوض في القيم والعادات التي لا تهُمُّ عقيدتَنا أو ثقافتَنا في شيء، أو غير ذلك.

كما يمكن التوفيق بين هاتين الآليتين في التعامل مع الزحف العولمي للحفاظ على خصوصية الهوية الإسلامية، فيتكتل المسلمون مع غيرهم ضد

مختلف الأخطار التي تهدد الوجود الإنساني، من حروبٍ وعنصرية ومجاعة وتطرف وتلوث بيئي، وهذا من شأنه أن يخدم الهويات الإنسانية المحلية ضد شتى مظاهر الاستلاب الحضاري والتهميش الإيديولوجي والهيمنة الأجنبية، ويُعرض المسلمون من ناحية ثانية عن القيم الأخلاقية «الشاذة» التي لا تمُتُّ بِصِلة إلى المنظومة القيمية الإسلامية، التي تنضبط لأصول العقيدة وأحكام الشريعة، ولا يتخذ هذا الإعراض طابعاً عنيفاً أو انتقامياً، وإنما يتم على أساس الرؤية القرآنية التي تدعو إلى سبيل الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة، وتجادل بالتي هي أحسن كما ورد في سورة النحل[1]، فإن فشِلت هذه الدعوةُ المنفتحةُ؛ انتقلنا إلى مرحلة الصبر على الأذى وعدم السب وعدم الخوض وغيرها، وهكذا نتجنب الوقوع في شِباك التطرف والعنف والانتقام، التي تقدم صورةً سوداويةً ملبَّدةً حول الإسلام، تُعمِّق الصورَ النمطيةَ التقليديةَ التي تصور الإسلامَ دينَ السيفِ والعنفِ والكراهية.

---

(١) سورة النحل/ الآية ١٢٥.

خاتمة

أهم ما استرعَى انتباهي في ثنائية الهوية والعولمة: أنها تتخذ طابعـاً إشـكالياً معقداً تجعل المهتمين يشككون في مصداقية العولمة التي تستهدف الإنسـانَ في هويته وخصوصيته الدينية والثقافية واللُّغوية، وقد سلَّطْنا الضـوءَ في هـذا البحـث على هذا الجانب «المفزِع» مـن العولمـة، فاستجلينا أن العولمـةَ ظـاهرة إنسـانية مشـتركة؛ أسـهمت كـل الأمـم والشـعوب علـى مـر الزمـان في نشـوئها وبلورتهـا، لتُيسِّر للإنسان أسبابَ الحياة الرغدة الخالية مـن الأوبئة والحـروب والفاقـات، لذا فإنه لا غِنى عن العولمة بهذا المفهـوم الإنسـاني الشـامل، الـذي يتعـارض مـع المفهوم الإيديولوجي الضيِّق، حيث تُختزل العولمةُ في أمْركة العـالم وإخضـاعه لقيم النظام العـالمي الجديـد واقتصـاد السـوق والأنجلوسكسـونية، وهـذا الأمـر مردود في العالم العربي والإسلامي وفي الغرب.

وقد توصلنا خلال هـذه الدراسـة حـول ظـاهرة العولمـة في علاقتهـا مـع قـيم الهوية الإسلامية؛ إلى جملة من المحصلات، أهمها ما يلي:

- تُحيل الهوية الإسلامية على مجموعة من المقومات الجوهرية في شخصية الإنسان المسلم، كالعقيدة، والتاريخ، والتراث، واللغة، والثقافة، وتنضبط كلهـا في الإطـار الـديني والأخلاقـي الإسـلامي، فتتجـذر بشـكل ثابـت في الذات المسلمة إلى حد أنه من المستحيل أن يتخلى أو يتنازل عنهـا الفـرد والمجتمع، في حين أن العولمة مُنتَج صنعته أيدي الإنسـان، فهـو معـرَّض للتغيــر الجــذري حســب الظــروف السوســيوثقافية والجيوسياســية والاقتصادية التي يوجد فيه الإنسان، لذا فنحن أمام ما هو ثابت (الهوية) قد يتجدد ولا يتلاشى، وما هو متغير (العولمة) قد يتلاشـى ولا يتجـدد، كمـا حصل بالضبط لما سبق من فلسفات وإيديولوجيات ومفاهيم.

- تنبثق الهوية من الذات أولاً بشكل فطري، حيث يولد الإنسان على فطرة التوحيد الإسلامي، ثم يتأثر المولود بعد ذلك بطبيعة السياق الديني والثقافي الذي ينشأ ويترعرع فيه، أما العولمة فهي مرحلة لاحقة في تاريخ الذات (الإنسانية)، طارئة عليها، والطارئ لا يمكن له أن يُلغي السابق والثابت.
- تسعى العولمة إلى نشر إيديولوجية معينة، وهذا يعني أنها مؤدلَجة ومؤدلِجة، في حين أن الهوية (الإسلامية) أرقى من أن تؤدلَج، لأنها تستوعب حياةَ الفرد كلها وتشغل المجتمعَ بكل أنساقه ومجالاته، فِمن دونها ترتجُّ شخصية الإنسان المسلم، فيعود القهقرَى إلى الجاهلية والانحطاط والفساد، لذا فإن القيم الدينية والأخلاقية الإسلامية بمثابة الهواء الذي نتنفسه والماء الذي نروي به ظمأ النفس، والغذاء الذي نسد به رمَق الجوع.
- لا تخضع هوية المسلم لما هو غريب وشاذ عن المنظومة الأخلاقية الإسلامية، فالعولمة وبعض قيمها هي التي يجب أن تستلهم القيم الإسلامية العالمية، فتتأقلم معها وتأخذ بالبدائل الروحية والأخلاقية والاجتماعية التي تطرحها.
- ترتكز الهوية الإسلامية على جملة من المقومات الموجهة بتعاليم الدين الإسلامي، كعقيدة التوحيد والتاريخ المشترك والثقافة الجامعة واللغة العربية وغيرها، إلا أن هذه المقومات تتفاوت من حيث الأولوية والأهمية والتأثير، منها ما هو ثابت لا يتغير كالعقيدة، ومنها ما يتجدد وِفق فُهوم الناس وتصوراتهم كالتاريخ والثقافة، ومنها ما يختلف من منطقة إلى أخرى كاللغة والعادات والتقاليد، وما يلفت النظر هنا، أن هذه المكونات ذات طابع معنوي صِرف، تتضافر كلها لترسيخ روح الإسلام الموصولة

بالغيب والآخرة في الذات والواقع، في مقابل ذلك تتأسس العولمة على جملة من المقومات، غير أنها ذات ملمح مادي ونفعي مَحض، تتضافر كلها لتثبيت رُوح العلمانية التي ترفض الغيبَ وتُقبل على الدنيا.

- لا تُشكّل قيم العولمة أيَّ تهديد للهوية الإسلامية، بل العكس صحيح، فمنظومة القيم الإسلامية المتماسكة هي التي تتحدى ذلك الجانب المنحرف في العولمة، أما القيم الكونية الجامعة التي تُرافع من أجل كرامة الإنسان والعدالة الاجتماعية والتسامح الديني وحماية البيئة؛ فالإسلام جاء بها منذ أكثر من أربعة عشر قرنًا، لذا فالمسلمون مدعوون اليوم للتكتل حولها مع غيرهم لإعمار الكون وحمايته من التلوث والاستنزاف، وإذا ما تعارضت هذه القيم مع مقاصد الدين الإسلامي؛ استدعى الأمرُ إعمالَ آلية الإعراض القرآني، التي تُجنِّب المسلمين الخوضَ فيما لا يعنيهم، وتُبعدهم عن الوقوع فيما يسيء إلى هويتهم الدينية.

مراجع البحث ومصادره

- **اللغة العربية:**

- القرآن الكريم
- تشومسكي، نعوم، السيطرة على الإعلام، ترجمة: أميمة عبد اللطيف، اتصالات سبو، المغرب، ط١/ ٢٠٠٥.
- التويجري، عبد العزيز بن عثمان، تأملات في قضايا معاصرة، دار الشروق - القاهرة، ط١/ ١٤٢٢- ٢٠٠٢.
- الجابري، محمد عابد، قضايا الفكر المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية بيروت، ط١/ يونيو ١٩٩٧.
- الجرجاني، الشريف، معجم التعريفات، تحقيق محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة، القاهرة، ٢٠٠٤.
- روا، أوليفيه، عولمة الإسلام، ترجمة: لارا معلوف، دار الساقي بيروت - لبنان، ط١/ ٢٠٠٣.
- صن، أمارتيا، الهوية والعنف، وهْم المصير الحتمي، ترجمة: سحر توفيق، عالم المعرفة (٣٥٢)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب الكويت، يونيو.٢٠٠٨
- العاني، خليل نوري مسيهر، الهوية الإسلامية في زمن العولمة الثقافية، ديوان الوقف السني بغداد، ط١/ ١٤٣٠هـ- ٢٠٠٩.
- عبد الرحمن، طه، روح الحداثة المدخل إلى تأسيس الحداثة الإسلامية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء- بيروت، ط١/ ٢٠٠٦.

- عمارة، محمد، مخاطر العولمة على الهوية الثقافية، في التنوير الإسلامي ٣٢، نهضة مصر، ط١/ فبراير.١٩٩٩
- فوكوياما، فرانسيس، نهاية التاريخ والإنسان الأخير، مركز الإنماء القومي بيروت، ١٩٩٣.
- معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، إدريس علوش، دار الكتاب اللبناني، بيروت، سوشبريس، الدار البيضاء، ط١/ ١٤٠٥ هـ- ١٩٨٥.
- معلوف، أمين، الهويات القاتلة «قراءات في الانتماء والعولمة»، ترجمة د. نبيل محسن، ورد للطباعة والنشر والتوزيع، سوريا، ط١/ ١٩٩٩.
- هنتنجتون، صموئيل، صِدام الحضارات إعادة صنع النظام العالمي، ترجمة طلعت الشايب، سطور، ط٢/ ١٩٩٩.

- **اللغات الأجنبية:**

- Ethnologue Languages of the World, ‘Summary by language size’, in: www.ethnologue.com
- Larousse, ‘identité’, Dictionnaires de Francais, in: http://www.larousse.fr
- Máxima: ‘Nederlandse identiteit nog niet ontdekt’, in: NRC Handelsblad, 25 september 2007
- Nationale identiteit in Nederland, Advies 9, Raad voor Maatschappelijke ontwikkeling, Den Haag 1999

– Scheffer, Paul, ‘Het multiculturele drama’, in: NRC Handelsblad, 29 januari 2000
– Standaard Woordenboek, Nederlands, Standaard Uitgeverij Antwerpen 2002
– Verkuyten, Maykel, Etnische identiteit theoretische en empirische benaderingen, Het Spinhuis Amsterdam 1999.